مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 166

عكا: صعود مدينة فلسطينية وهبوطها، 1730 – 1831*

Acre: The Rise and Fall of a Palestinian City, 1730-1831

Thomas Philipp
New York: Columbia University Press, 2001.
299 pages. $17.50 paper.

تمثل عكا شهاباً لمع في سماء ليل فلسطين العثمانية (1516 – 1918). فقد أضاءت الخرائب المعتمة، التي يسكنها حفنة من الصيادين الفقراء، الساحلَ الفلسطيني، عندما كبرت بين ليلة وضحاها (بدلالة التاريخ) لتصبح ثالث أكبر مدينة في سورية الكبرى. فبسبب تصدير القطن الخام إلى أوروبا من خلال احتكارات حكومية، أصبحت عكا مدينة للمهاجرين تخضع لضوابط سياسية مشددة. وقد سبقت تجاربُها التحولات الرئيسية في أنماط التجارة، وتمركزَ قوة الدولة، وانتقالَ مراكز الثقل الاقتصادي من الداخل إلى الساحل، التي ميزت القرن التالي. كان المجال السياسي لعكا، في أسطع لحظاته، يمتد إلى معظم أرجاء سورية الكبرى (ولايات دمشق وطرابلس وصيدا). وكانت أسوارها المزدوجة الشديدة التحصين ترمز، في تلك الأثناء، إلى التحديات المحلية التي واجهتها السلطة المركزية العثمانية، كما أنها صمدت أمام حصار نابليون (سنة 1799) وأدت إلى النهاية الكارثية لمغامراته في قلب الأراضي العثمانية. ثم بعد ذلك، انقلبت عكا بسرعة إلى بلدة صغيرة هاجعة، وحجبتها النجوم الساحلية الجديدة: بيروت وتلتها يافا، ولاحقاً حيفا، التي لا تزال تحيا في كنفها.

من حسن حظ المؤرخين أن التحول الشكلي الذي أصاب عكا استحوذ على خيال السكان المحليين والمسؤولين الحكوميين ورجال الأعمال (ولا سيما الفرنسيين). وقد خلّفت انطباعاتهم آثاراً تاريخية طويلة، تتراوح بين الشعر الشعبي والحوليات التاريخية وبين التقارير القنصلية والسجلات التجارية وأدب الرحلات. وفي الوقت نفسه، أنتج الموظفون العثمانيون في القاهرة ودمشق وإستانبول مجموعة ثانية من المصادر التي تفصّل لقاءاتهم بهذه المدينة الحديثة النعمة، وإن كانت أقل حيوية من المجموعة الأولى.

ربما يعتقد المرء أن السجل التاريخي الكبير، الذي اقترن بالدراما المكثفة للتحول الحضري غير المسبوق، وبالأحداث المثيرة، وبالشخصيات الأسطورية (الزعيمان

* **المصدر:** *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxiii, no.1 (Fall 2003), pp. 98-100.

الرئيسيان لعكا، ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار، هما الشخصيتان التاريخيتان الوحيدتان من فلسطين العثمانية اللتان بقيتا في الذاكرة الشعبية المحلية) يمكن أن يولّد أدباً تاريخياً يتسع لمجلدات. وعدم حدوث ذلك شهادة على قوة نظرية الانحطاط التي تفترض أن الساعة التاريخية – أي الحداثة – لم تبدأ دقاتها في سورية الكبرى إلاّ مع الغزو المصري سنة 1831. وكل ما كان سابقاً تراجع إلى مجرد خلفية ساكنة.

يفتح كتاب توماس فيليب نافذة فريدة حقاً على القوى التي بشّرت بالحقبة الحديثة، باعتباره أول دراسة منهجية للفترة اللامعة من تاريخ عكا. وتشكل السياسة، وهي موضوع أطول الفصول، الاهتمام الرئيسي لفيليب. فهي تشكل في روايته الحلقة الأولى في سلسلة السببية التاريخية، يليها الاقتصاد ومؤسسات الدولة والمجتمع، وكل منها يعالج في فصل منفصل. ويبدو على وجه الخصوص أن السياسة في عكا تنبع من الشخصيات، ومن المواقف العالمية للقادة العسكريين الأربعة: ظاهر العمر (1690 – 1775)، وأحمد باشا الجزار (1730؟ – 1804)، وسليمان باشا العادل (حكم 1805 – 1819)، وعلي باشا (حكم 1819 – 1831). وكل فصل موضوعي منظم في الواقع، بترتيب زمني، إلى مقاطع تقابل فترات حكمهم.

ويكمن أفضل ما في الكتاب عند بحث العواقب غير المدركة من قبل للقاء بين الظروف الطارئة للتاريخ والثقافة السياسية لحكام عكا، الذين تفاوتوا ما بين صبي محلي صار كفياً (العُمَر)، ومملوكيْن محنكين (الجزار وسليمان باشا)، وشاب واقع تحت تأثير المستشارين المنغمسين في السياسة المحلية (علي باشا). ومن الأفكار المعمقة أن "الأشكال التقليدية الصارمة للحكم السياسي" (ص 189) أحدثت علاقات اقتصادية واجتماعية جديدة جداً. ومن الأفكار الأُخرى السيرة الذاتية للجزار ذات النزعة التنقيحية والمتعاطفة استناداً إلى تحليل نقدي للتصورات الفرنسية؛ وهي تفسير مقنع لتحيزات المؤرخين المحليين، وجمع لعشرات التفصيلات الصغيرة التي تلقي الضوء على شخصية هذا الرجل المعقدة، والتي أدانها كل من كتب عنها حتى الآن.

وتبقى السيرة الذاتية المبدأ الناظم، حتى عندما ينتقل التركيز إلى الاقتصاد والإدارة. وهكذا تتحول المقاطع المرتبة بحسب تسلسل الأحداث لتتلاءم مع المسارات المهنية لسلسلة من الخبراء الماليين ورؤساء الموظفين الذين كانوا مسؤولين عن العمليات اليومية. وقد لقي العملاقان بينهم، إبراهيم الصباغ، وهو كاثوليكي من لبنان، وحاييم فرحي، وهو يهودي دمشقي، الاهتمام التاريخي الذي يستحقانه. وهنا يظهر فيليب أنه مدرك تماماً للمناقشات في الدين والهوية والسياسة الإمبريالية، ويشير بشكل متكرر إلى أن النزاع الطائفي الذي يعتقد كثيرون أنه سمة متوطنة في المجتمعات العربية لا يمكن كشفه قبل عشرينات القرن التاسع عشر.

سيقدّر الباحثون والقراء العاديون، على السواء، قرار فيليب إنزال مكانة المعلومات

المفصلة عن البنية السكانية والتجارية والإدارية إلى الملاحق – إلى جانب الخرائط والترجمات والحواشي – وهي تشكل ثلث الكتاب تقريباً. ويساهم ذلك، إلى جانب الرواية السهلة القراءة وإن كانت التكرارية بعض الشيء، في القراءة السريعة والإخبارية. إن إتقان فيليب لمجموعة المصادر الأولية المذكورة أعلاه (واعتماده الشديد عليها) يتيح له تجميل الرواية بالصور الأخاذة، وبناء دراسات محكمة من مصادر جزئية ومتضاربة. غير أن المصادر المستخدمة لا تتحدث كثيراً عن الأرض والعمالة والتحولات في العلاقات الزراعية على مستوى القرية. ويتمنى المرء أيضاً لو أنها كانت تتحدث أكثر عن الحياة الاجتماعية والشبكات الاقتصادية والممارسات الثقافية لسكان عكا، الريفيين والحضريين، وعن أراضيها الداخلية. مع ذلك، فإن الباحثين مستقبلاً، المهتمين بهذه المسائل، سيكونون شاكرين للبحث المتين الذي أجراه فيليب عن اللاعبين الفاعلين الأساسيين والأحداث والسياق السياسي الإجمالي لهذا الفصل الرائع من فصول تاريخ فلسطين العثمانية.

بشارة دوماني
أستاذ التاريخ في
جامعة كاليفورنيا، بيركلي

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf